

حضور الدين في مقاومة البربر للاحتلال البيزنطي قبيل

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

د.يزير بشير

جامعة زيان عاشور الجلصة

bachiryazir1991@gmail.com

الملخص:

يُضِلّ موضوع البحث في مرتكزات الفعل الاستعماري في التاريخ القديم لبلاد المغرب يطرح نفسه على صعيد البحث التاريخي ، رغم تشبّع ميادين البحث بالتقريب عن الجوانب السياسية و العسكرية بما يميّط اللثام عن فترات دقيقة من تاريخ الشمال الإفريقي ، خاصة أثناء فترة الانتقال من فترة زمنية إلى فترة أخرى مغايرة لها .

لقد بات من المسلّم أنّ حالة من الكساد الروحي كانت قد سادت لدى قبائل البربر في فترة نهاية الاحتلال البيزنطي ، فهل أدرك المواطنون المور أنّ الانتماء للكنيسة الرسمية البيزنطية بات يصنّف ضمن إطار خيانة القضية الوطنية للشمال الإفريقي فخفتت بذلك جذوة التدين و تدنّت يقظة الروح بالموازاة مع قطيعة إدارية و سياسية في التّواصل للمستعمر البيزنطي مع السّكان نهاية القرن السابع الميلادي .

الكلمات المفتاحية: البربر - الدين - المسيحية - البيزنطي

Abstract:

The subject of research on the foundations of the colonial act in the ancient history of the Maghreb presents itself in the field of historical research, despite the saturation of the fields of research by exploring the political and military aspects to reveal accurate periods of the history of North Africa, especially during the transition from time to time Hetero. It is now recognized that a state of spiritual depression was prevalent among the Berber tribes during the end of the Byzantine occupation. Administrative and political in connection with the Byzantine colonial population with the end of the seventh century

Keywords : Berbers , Religion , Christianity , Byzantine

المقدمة:

تتمثّل الدّواعي العلمية و الصّعوبات المنهجية للموضوع فيما يلي :

- تعميمات الكتابات الفرنسية خصوصا و الاستشرافية عموما حول انتماء البربر إلى المسيحية بغرض تكريس انتماء الشمال الإفريقي إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية و البيزنطية لتكريس الرؤية الحضارية التّواصلية بين الدّولة الأم و مستعمراتها قديما في إسقاط واضح نحو مخرجات التّاريخ الحديث .

- تعميمات الكتابات الإسلامية حول انتماء البربر للديانة النّصرانية دون اعتماد أدلّة تاريخية حديثة أو شواهد أثريّة و هو الأمر الذي ترك غموضا استغلّته الكتابات الاستشرافية لتثبيت أطروحات تنطلق من أهداف غير علميّة و غير موضوعيّة .

- انقطاع الكتابة الأثرية و الأدبية البيزنطية في فترة انتقال المور من العالم القديم و تبعيّة للإمبراطوريات الاستعماريّة إلى العصر الوسيط إلى حظيرة العالم الإسلامي وحضارته .

- لم تتوفّر المصادر الإسلامية على تدوين منهجي دقيق يرافق عمليّة الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي إذ كان من الممكن أن يعرّفنا بالمتلقّين لعمليّة الفتح فكانت الكتابات المصدريّة في القرون اللاحقة منقوصة منهجيا .

- تحاشي الكتابات المعاصرة معالجة هذا الموضوع لغياب المادة الأثرية و الحفريّة ، و مصادر البحث عموما .

فهل ارتبطت قبائل البربر المستقرّة عند تخوم الإدارة البيزنطية بروابط دينية أو حضارية معيّنة بهم ؟ ، و هل تسرّب إلى تلك القبائل شيء من روح التدين المسيحي غدّى رفضها للإسلام فيما بعد ؟ وكيف مثّلت قبيلة أوربة صوت العقل الجمعي للبربر المستقرّين ، وكيف قبلت بالإسلام جملة ثم رفضته تفصيلا ؟.

1 - الكنيسة الإفريقية عشية الفتح الإسلامي :

تسرّبت المسيحية إلى شما إفريقيا بداية من القرن الثالث الميلادي¹ عبر مصر التي كانت قد تواجدت فيها منذ القرن الأول الميلادي² بالرغم من أن الدولة الرومانية في شمال إفريقيا قد أخذت تضطهد هي الأخرى المتدينين محدودي العدد من الأغنياء و كبار التجار و الملاك الرومان و الأفارقة ، إلا أنّ الدعاة ما انفكوا يلونون بالفرار متوجهين إلى داخل البلاد هربا من البطش و الاضطهاد ، فكان أن لمسوا شيئا من القبول لدى الساكنة الذين سرعان ما تحوّلوا إلى وقود حرب طاحنة يقودها الأسقف دوناتوس donatus ضدّ أسقف قرطاجنة ، فقد كان أن نجح دوناتوس³ في استغلال عاطفة و أوضاع المور ليقوموا إلى جانبه بثورة دينية في مظاهرها اجتماعية و اقتصادية في منطلقاتها⁴.

و في فترة الوجود الرّماني لم يكن التّواصل بين السّلطتين الرّوحية و الزّمنية على ما يرام خاصة بعد أن استقطبت الكنيسة طبقات الأرستقراطية بمصادرها المالية و العقارية ، بل استطاعت أن تقف في وجه الملك جنزريق 450 / 477 Genséric الذي حاول مصادرة أملاك الكنيسة الكاثوليكية ليفسح المجال للمذهب المسيحي الأريوسي عبر اضطهاد الممتنعين من الكاثوليك الرّومان فكان أن استقادت الكنيسة

الدّوناتية من هذا التّراجع الكاثوليكي و أضحت منافسا قويا لها⁵.

و في الفترة الاستعمارية اللاحقة و بعد أن نزلت قوّات القائد البيزنطي بيلزاريوس في إفريقيا سنة 533 م⁶ ، قام قام جستنيان بإعادة الاعتبار للكنيسة الكاثوليكية و أنزل الاضطهاد بالمسيحيين الأريوسيين و أتباع المذهب الدّوناتي و الوثنيين كذلك في سبيل توظيف الخطاب الكنسي الرّسمي في خدمة أهداف الإمبراطورية البيزنطية وريثة الإرث الرّماني العظيم⁷.

ويبدو أنّه كان لاهتمام جوستينيان بإعادة ترتيب أمور الكنيسة أثر يذكر لمستقبل المسيحية بين قبائل المور المحيطة بصبرا و طرابلس و بعض نواحي نوميديا مثل وادي شلف و حول تلمسان ، تؤكّد ذلك بعض الحفريات و هي القبور ذات النقوش المسيحية⁸ فالإي مدى تكون قد تغلّغت هذه الديانة بين قبائل المور فترة نهاية الوجود البيزنطي ؟ .

إنّ إطلالة سريعة على أوضاع الكنيسة الإفريقية في النّصف الثّاني من القرن السابع الميلادي يعطينا انطبعا صادقا على أنّ الكنيسة الرّسمية البيزنطية كانت مختلة الإدارة و تعاني من انهيار في الجانب الأخلاقي القيمي الذي زاد من نفور الأتباع الذين توجّه عدد منهم إلى اعتناق المذهب الدّوناتي الذي كان قساوسته لا

⁵ يوسف عيش ، الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب دراسة للأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية ، دار بهاء الدين ، قسنطينة ، 2009 ، ص 133 - 135 .

⁶ Mercier .E , Histoire de l'Afrique septentrionale (Berberie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française, Edition Ernest Leroux, Paris 1888., T 1, p 165 .

⁷ يوسف عيش ، المرجع نفسه ، ص 137 .

⁸ جورج مارسيه ، بلاد المغرب و علاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى ، تح : محمود عبد الصّمد هيكل ، الإسكندرية ، مصر ، 1991 ، ص 50 .

¹ فيلالي عبد العزيز ، عبد العزيز فيلالي ، دراسات في تاريخ الجزائر و الغرب الاسلامي ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، 2012 . ص 30 .

² Ernest damnann , les religions de lafrigue, payot paris,1964 , p 212 .

³ حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة مصر ، دت ، ص .

⁴ خديجة منصور ، الصراع الدّوناتي الكاثوليكي ، مجلة جامعة الأمير عبد القادر ، العدد 12 ، دار البعث ، قسنطينة ، 2002 .

و زناة و مكناسة و غيرهم حتى هزمهم ، ففترغ من قتال النصارى ، و ذلّوا إلى آخر الدهر »¹²

بينما أشار البكري في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي إلى وجود بقية من النصارى في تلمسان في عصره يمارسون شعائهم في كنيساتهم التي وصفها بأنها معمورة¹³.

أما ابن خلدون فقد أشار بشيء من الإجمال إلى أن البربر كانوا « قبل الإسلام تحت ملك الفرنجة ، وعلى دين النصرانية الذي اجتمعوا عليه مع الروم »¹⁴، وعند تفصيله لأحداث الفتح الإسلامي لبلاد المغرب و في حملة عقبة بن نافع الفهري الثانية وعند مسيره الأول الذي كان حربا خاطفة تستهدف جيوب المقاومة في الأوراس « كانت النصارى تهرب من طريقه يمينا و شمالا ، فلجا النصارى إلى مدينة باغاية »¹⁵ و لم نفهم من هذا الوصف إن كان يقصد بالنصارى البربر أم الروم البيزنطيين أو تحالف القوتين معا رغم استبعاد تحالف البربر مع الروم في هذه المرحلة من الفتح قبل تغيير مواقف البربر من الفاتح عقبة بن نافع الفهري .

و في وصف آخر لابن خلدون نكاد نفهم منه بأن المغاربة عموما كانوا وثنيين فقد « كان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم في المشرق و المغرب إلا في بعض الأحايين يدينون بدين من غلب عليهم من

يزالون على عدائهم التقليدي الذي يحرك الثأرين و الناقمين على الأوضاع العامة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية⁹ .

2 - ديانا البربر في المصادر العربية الإسلامية :

تشير المصادر الإسلامية دون تفصيل إلى انتشار المسيحية غداة الفتح الإسلامي في المغرب الأوسط فقد أشار ابن عبد الحكم في حكم له مجمل على عامة البربر بأنهم كانوا كفّارا¹⁰ دون تفصيل في معرض حديثه عن نزول الفاتحين الأوائل بها ليعطينا بعدها حكما صريحا واضحا على ديانة البربر بتفصيل بين البرانس و البتر منهم عند وصفه لبداية استقرار الإسلام في الشمال الإفريقي بعد حملة حسان بن النعمان فقال يقصد بالوصف أعمال حسان : « فوضع الخراج على عجم افريقية ، و على من أقام معهم على النصرانية من البربر و عامتهم من البرانس إلا قليلا من البتر في جمادى سنة ست و سبعين ... »¹¹.

و في النص التاريخي الذي حقّقه ليفي بروفنسال حول فتح المغرب نجد توصيفا يسمّى قبائل البربر التي كانت على علاقة ما بالروم البيزنطيين لم يتسنى لنا التعرف على نوع تلك الرابطة هل كان تحالفا عسكريا سياسيا تمليه المصلحة و ضرورة الوضع ، أم كان توافقا حضاريا فيه حضور للصبغة الدينية و ذلك عند حديثه عن حملة عقبة بن نافع الثانية فيبعد أن « دخل الزّاب إلى تيهرت فوجد عليها جموع البربر و النصارى ، و كان على تيهرت لواته و هواره و زواغة و مطماطة ،

¹² مجهول ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، تح : ليفي بروفنسال مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، العدد 1- 2 ، مدريد ، 1954 ص 219 .

¹³ البكري أبي عبيد الله ت 487 هـ ، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، مصر ، دت ، ص 76 .

¹⁴ ابن خلدون ، تاريخ بن خلدون ، تح : خليل شحادة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 2001 ج 6 ، ص 140 .

¹⁵ الرقيق القيرواني ، تاريخ افريقيا و المغرب ، تح : عبد الله العلي الزيدان ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1990 ، ص 10

⁹ Chr. Courtois, de Rome a L'islam ,rev afr, T86 ,P 36 .

¹⁰ ابن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ، فتوح مصر و المغرب ، تح : عبد المنعم عامر ، القاهرة ، دت ، ص 268 .

¹¹ المصدر نفسه ، ص 268 .

الأمم... فقد غزتهم ملوك اليمن من قرارهم مرارا على ما ذكر مؤرخوهم فاستكانوا لغلبهم و دانوا بدينهم...»¹⁶ .
أما صاحب مفاخر البربر فيحاول أن يجعل لنا في فقرة ديانات البربر دون تفصيل أو فرز للقبائل الوثنية أو النصرانية فقد ذكر أنه « تنصر كثير من البربر و بقي الآخرون يعبدون ما يعبد أهل الجاهلية من الأصنام والأوثان و بعضهم يعبد الشمس و القمر و الكواكب و غير ذلك، ومنهم من تهوّد و تمجّس و فيهم كهّان »¹⁷ .

3 - ديانة أوربة قبل الإسلام :

يؤكد ابن خلدون في نصّ صريح اعتناق قبيلة أوربة للنصرانية فقد ذكر بأنّه « كانت رئاسة البربر يومئذ في أوربة لكسيلة بن لمزم و هو رأس البرانس و مرادفه سكرديد بن رومي بن مازرت من أوربة و كان على دين النصرانية »¹⁸ ، و إذا حاولنا أن نعول على بناء فكرة ما حول الانتماء الديني لقبلة أوربة فإننا نصطدم مرّة أخرى بوصف آخر لنفس المؤلف ينكر وجود ديانات سماوية ضمن عبادات البربر و معتقداتهم ففي حملة عقبة بن نافع الثانية و لما توجه قاصدا المغرب الأقصى وجد هناك الحاكم القوطي و الذي أحسن استقبال عقبة بأن سهّل له المسير لما زوّده بخارطة مهمّة لانتشار البربر و أفهمه نمط اعتقاداتهم هناك : « تركت الروم خلفك و ما قدّامك إلّا البربر و فرسانهم ، قال له : و أين موضعهم ، قال في السّوس الأدنى و هم قوم ليس لهم دين و لم يدخلوا النصرانية ، يأكلون الميتة و يشربون الدّم من أنعامهم و هم أمثال البهائم يكفرون بالله عزّ وجل و لا يعرفونه ».

فإذا أردنا أن نبني مقارنة مكتملة الأركان حول تدين قبيلة أوربة فإننا ملزمون برفع التناقض الظاهر بين فحوى النصّين فالنصّ الأول الذي يشير صراحة لانتماء قبيلة أوربة وقائدها للديانة النصرانية و بين النصّ الثاني الذي يعمّم فيه القائد القوطي انتماء البربر للوثنية التي كان يمقتها هذا النصراني و يصفها بأشنع الأوصاف ، فهل كان يقصد كل البربر أم كان يقصد البدو الضاربين في أعماق الصحراء و الذين لم يقتربوا طيلة قرون من مواطن الحضارة و العمران فيتلوّنوا منها بشيء من الرقيّ الروحي و المادي ؟ .

إنّ ما يمكن الاستئناس له و في غياب مصادر أثرية و حفريّة و في غياب كتابات معاصرة توثّق لذلك الانقلاب الحضاري العميق ، هو أنّ قبيلة أوربة كانت من القبائل المستقرّة في مضاربها قرب مناطق النفوذ البيزنطي بنواحي تلمسان و ويلي في المغرب الأقصى و قد أدّى بها قربها هذا لأن تصتبغ بلون حضارة البيزنطيين، هذه الحضارة التي تكون الديانة النصرانية أحد أهمّ أبرز مكوّناتها ، و ما يؤكّد هذه الصبغة و بالإضافة للمصادر السّابق ذكرها هو ذلكم الحلف الذي سينشأ بين هذه القبيلة التي ستقود تحالفا البربر و البيزنطيين ضدّ عقبة بن نافع في حملته الثانية جنوبي الأوراس .

لكنّ لما لم تتحدّث المصادر عن جموع المتديّنين من البربر و عن محاولتهم التمسك بديانتهم النصرانية و حقوقهم في العبادة، و من هم قساوستهم ؟ ، و أين أطلال الكنائس و دور العبادة ؟ ، و هل يمكن أن يحدث هذا الانقلاب السّريع دون اتّفاقيات و ضمان لحقوق من بقي من البربر على دين النصرانية ؟ .

إنّ ما يمكن أن نخلص إليه هو أنّ قبيلة أوربة لم تتمكّن منها النصرانية و لم تتلمّس تعاليمها قلوب و عقول معتققيها لأسباب كنّا قد ذكرناها أول هذا العرض، إذ يبدو أنّ تدينها كان نخبوا يداري به زعمائها من

¹⁶ ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج 6 ، ص 139 .

¹⁷ مجهول ، مفاخر البربر ، تح : عبد القادر بوباية ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 2005 ص 196 .

¹⁸ ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 140 .

بشيء من التعميم المنذفع غير المبني على أصول التمهيص و البحث والتنقيب إذ يتحدث كامبس و قوتييه و مارسيه عن انتماء كلي للبربر خاصة المستقرين منهم للديانتين اليهودية و النصرانية دون استثناس بشواهد علمية دالة إلا بعض الإشارات لأطلال الكنائس المبعثرة في ريف المغرب الأوسط و التي كانت تدلّ حسب زعمهم على اعتناق البسطاء منهم للمسيحية²¹.

ويرى كامبس camps أن البربر غير المتحضرين و الذين كانوا على هامش الحضارة مثل قبائل " الجيتول " المنتشرون أسفل خط الليمس الموريتاني و اللذين لم يتروموا لم تتأثر عباداتهم الوثنية الغارقة في مظاهر الطبيعة في الوقت الذي اقتبس المستقرون من البربر شعلة الدين المسيحي من الرومان و البيزنطيين طيلة التاريخ القديم²².

بينما يبالغ قوتييه E.F.gautier في إثبات وجود الديانة النصرانية بين قبائل البربر المستقرين جنوبا إذ تسربت حسب رأيه إلى المرابطين في توجههم التقشفي الذي اقتبسه من أدبيات التنسك المسيحي لما قاومت هذه التعاليم أربعة قرون من الزمن، مع إقرار هذا الباحث بعدم وجود دليل مادي ملموس يؤكد هذا الطرح²³.

و مع ذلك نتلمس شيئا من الموضوعية لدى المستشرق ألفرد بل الذي ينحى منحى يناقض به رواد مدرسته فهو يرى بأن عقائد البربر و إلى غاية يومنا و كما الأمس لازالت ترى بأن العالم تسكنه الأرواح الطيبة و الخبيثة التي يمكن أن تأخذ أشكالا مختلفة و تسكن مؤقتا الأحجار و الأشجار و الحيوانات البشرية و هي

أمثال كسيلة بن لمزم هذا الحكام البيزنطيين لمصالح سياسية و مادية تكون قد نشأت بين الطرفين في ظلّ تطوّر نفوذ زعامات البربر في فترة نهاية الاحتلال البيزنطي .

و مع ذلك يعود ابن خلدون و في نص آخر ليفيد بخارطة إضافية لتوزيع ديانات البربر نهاية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي عندما حاول إدريس بن عبد الله العلوي تثبيت أركان دولته لما « زحفإلى البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية و اليهودية و النصرانية مثل قنلاوة و بهلونة و مديونة و فتح تامسنا و شالة و تادلة و كان أكثرهم على دين النصرانية فأسلموا على يديه طوعا و كرها و هدم معاقلم¹⁹ » .

إنّ وجود هذه القبائل في منطقة ويلي التي تعتبر منطقة استقرار بيزنطيّ متقدّم لا يستبعد أن تظّم هي الأخرى بقايا من البربر المستقرين متأثرين بحضارة و ديانة البيزنطيين على أن تكون في حدود المصلحة و النخبوية في الانتماء و الإدارة و الاستغلال السياسي ، و الذي يؤكّد هذا الطرح هو انخراط قبيلة أوربة من جديد في دعوة الأدارسة الحسنيين و تشييعها لهم و قيامها بأدوار مخزنية باكرة في تاريخ بلاد مغرب العصر الوسيط²⁰.

04 - ديانات البربر بين الكتابات الوطنية و الدراسات الاستشراقية :

رغم الضبابية التي تسيطر على الرؤية العلمية الدقيقة لمسألة الرقي الروحي و الانتماء للديانات السماوية إلا أنّ الكتابات الاستشراقية ما نعتاً تتحدّث

²¹ جورج مارسيه ، المرجع السابق ، ص 39 .

²² Camps , l'inscriptions de bégas et le problème des

dii mauri , rev . Afr , vol 98 p 233 .

²³ E.F.Gautier, le passé de l'afrique du nord , (les siècles obscurs), petite bibliothèque payant, Paris 1952. , p 49 .

¹⁹ ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 4، ص 17 .

²⁰ مراكشي مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار : تح : سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العراق ، 1985 ، ص 195 .

عقائد موعلة في الإنسانية البدائية لم يستطع الإسلام ولا المسيحية القضاء عليها نهائياً²⁴.

و ضمن هذا الجانب أفاد البكري في إشارة شاهدها ووقف على تفاصيلها في مدوّنته إلى وجود طقوس وثنية يمارسها قبيل من البربر في شمال إفريقيا بالقرب من طرابلس ف « من قصر ابن ميمون ثلاثة أيام إلى صنم من حجارة مبني على ربوة يسمّى كرزة ، ومن حواليه من قبائل البربر يقربون له القرابين و يستشفون به من أداويهم و يتبركون به في أموالهم على اليوم ... »²⁵ ، و إذا صحّ هذا الذي وصفه البكري فإنّ تلك الطقوس الوثنية لم تقاوم انتماء البربر للديانتين اليهودية و المسيحية فحسب بل استطاعت أنقاوم تجذّر الإسلام بعد قرنين من الزمن تلت التثبيت النهائي له في شمالي إفريقيا .

و إذا كان هذا هو طرح مدرسة المستشرقين فإنّ الدراسات المتخصصة التي اهتمت بالتراث المادي و الديني للشمال الإفريقي في بعده القومي العميق ترى أن التأثير الخارجي الفينيقي الذي أورثوه لأحفادهم القرطاجيين كرس التوجّه الوثني لدى سكان الشمال الإفريقي ، حيث ارجع الأستاذ محمّد الصّغير غانم انتشار الوثنية بين ساكنة بلاد المغرب إلى طبيعة الجغرافيا الصّعبة عندما صعبت من تنقّل الأفراد ذوا التأثير الديني و الروحي فساهمت بذلك في انغلاق الآفاق لدى السّاكنة فمنع التأثير و التّأثّر وهو الذي منع انتشار الديانتين المسيحية و اليهودية²⁶.

وقد لمّح الأستاذ إلى أنّ الدّراسات الفرنسية كانت و عبر محاولتها نسج علاقات تواصل حضاري وثيق بين البربر و الرّومان عبر خلق مبررات لحدّ أدنى من علاقات كانت قد وجدت بالفعل بين المحتل و صاحب الأرض لتتحوّل إلى تسويق نجاح آلية الرّومنة كنمط حضاري لا يتعلّق بالفعل الاستعماري²⁷ رغم أن هذه النظرة لا تتبني على أي شاهد لا تاريخي و لا أثري و هو الذي سيؤدّي بالبربر إلى رفض الدين الإسلامي بادئ الأمر خاصّة في حملة عقبة بن نافع الثّانية التي لم يعرف فيها طبيعة السّكان الأصليين رغم حنكته العسكرية و سبقه و قوّته في الغزو و الفتوح .

05 - حضور الدين و المعتقد في مقاومة قبيلة أوربة:

أ - إسلام قبيلة أوربة :

يظهر اسم قبيلة أوربة في خضمّ أحداث فتوح بلاد المغرب و يقترن ذكرها في المصادر الإسلامية بأعمال الفاتح أبي المهاجر دينار الذي كان قد عسكر أوّل أمره في ميله التي مكث بها نحو من سنتين بداية من 56 هـ / 678 م²⁸ ، و التي جعل منها معسكراً و مقرّاً لجيشه يبعث منها سرايا الاستطلاع وخاصّة و أنّه استأنس هناك لقبيلة كتامة البرنسية التي أضحى لها السّبق في مجال احتضان الدّعوة الإسلامية في أطوارها الباكّة في الشمال الإفريقي ، و هذا التقدّم لها هو الذي يفسّر لنا اهتبالها الفرصة لاحتضان الدّعوة الفاطمية العبيدية بعد قرنين لاحقين من الزمن .

و بعد أن نجح أبي المهاجر دينار في ضمّ قبيلة كتامة يبدو أنّ اتّجه إلى الغرب منها إلى مضارب قبلة أوربة التي كانت مابين تلمسان و ويلي بالمغرب

²⁴ ألفرد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتّى اليوم ، تر : عبد الرحمن بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1987م ، ص 60 .

²⁵ البكري، المصدر السابق ، ص 12 .

²⁶ حارث محمّد الهادي ، أصول عبادة آمون في المغرب القديم ، مجلّة الدّراسات التّاريخية ، معهد التّاريخ ، العدد 4 ، السنة 3 ، 1988 ، ص 11-16 .

²⁷ محمد الصّغير غانم ، الملامح الباكّة للفكر الديني الوثني في شمال

إفريقيا ، دار الهدى ، عين مليلة ، 2005 ، ص 7-8 .

²⁸ خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط العصفري ، تح : سهيل

زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 1993 ، ص 171 .

الأقصى إذ كان « التقدّم لعهد الفتح لأوربة هؤلاء بما كانوا أكثر عدداً وأشدّ بأساً....على البرانس كلّهم »²⁹.
و يبدوا أنّ أبي المهاجر قد عسكر حول تلمسان لمدة تفوق السنتين يكون قد عمد فيها إلى التقرب من قادة و زعماء هذه القبيلة التي أدرك قوتها و سبقها و قيادتها لحلف القبائل البرنسية و التي تكون و حسب موقعها القريب من الساحل على علاقة ما بالبيزنطيين لا ندري يقينا في هذه المرحلة مدى قوّة ارتباط هذه القبيلة بهم ، و قد أفلح أبي المهاجر في أن يظمّ قبيلة أوربة البرنسية و زعيمها إلى معسكر الفتح بأن دعاهم إلى الإسلام و هو ما يفيد به ابن خلدون لما ذكر أنّ كسيلة كان قد « ظفر به أبي المهاجر و عرض عليه الإسلام فأسلم و استنقذه و أحست إليه و صحبه »³⁰.
لم تتحدّث المصادر عن أي مقاومة أو معارك أو صدامات بين أوربة التي كانت تشرف على قيادة تحالف قبائل برنسية تشترك في كونها قريبة من مراكز الحكم البيزنطي ، فهل استقر رأي أبي المهاجر على أن يكون جيشاً من البربر أهل البلاد كقوة جديدة خالصة مخصصة له في الانقياد و الطاعة و الولاء ، وهل كان يحمل مشروعا يستكمل فيه فتح بلاد المغرب بعد أن وجد في هؤلاء البربر و زعاماتهم آذانا صاغية من قوم ألفوا شيئاً من المسؤولية جزاء قربهم من مراكز الحكم البيزنطي .

و إذا كان أبي المهاجر دينار قد استطاع بحنكته و سياسته المغايرة لسلفه عقبة بن نافع أن يظمّ إلى حظيرة الإسلام الناشئ في تلك البلاد أقوى قبائل البربر و أشدهم نظاماً و أكثرهم تحضراً فإنه لم يكتب لهذا النهج من التعامل التّواصل بعد أن عاد عقبة بن نافع لاستلام زمام الأمور في قيادة جيش الفتح لبلاد المغرب و لم

تعد فترة قيادة أبي المهاجر إلّا زمناً فاصلاً شطر مشروع عقبة بن نافع إلى قسمين .

ب - حلف التّروم و البرانس :

تواصلت عمليّات الفتح عبر نهج يخالف عبره الفاتح عقبة بن نافع أسلوب سابقه ليعود إلى سابق عهده إذ لم يعرف في حقيقة الأمر لهذا القائد أي عمل يقوم على المداينة و المداراة و التّحالف ، و لعل اعتماده على العمل العسكري لم يتيح له الاستقرار بين البربر حتّى يعرف عن قرب أخلاقهم و طباعهم و أساليب عيشهم فقد عاد سنة 62 هـ / 681 م و بدأ في المغرب الأوسط بمحاصرة المدن و القلاع كمدينة باغاية التي اصطدم فيها بمقاومة بيزنطية عنيفة إذ وصفت المصادر بأنّ « النصارى كانت تهرب يمينا و شمالا »³¹ و بعد أن حاصر قلعة مجانة « لجأ النصارى إلى باغاية فقاتلهم عقبة و غنم منهم و لما تحصّنوا في قلاعهم كره عقبة أن يقيم عليهم »³² ، فمن هؤلاء النصارى ؟ هل هم بقايا جيوب المقاومة البيزنطية مكثت تحتّمي بقلع الجبال الوعرة في الأوراس و سلسلة جبال الأطلس الصحراوي ؟ أم كانوا من البربر الذين لم تتسرّب إليهم تعاليم الدّعوة الإسلامية و كانوا بالفعل نصارى ملتزمين بتعاليم دينهم ؟ .

إن سياق الأحداث المقبلة قد نفهم منه شيئاً يعين على بناء فكرة صحيحة حول مسألة المقاومين للفتح الإسلامي في احد أهم تطوّراته في حملة عقبة بن نافع الثانية ، فقد نزل بعد الأوراس إلى الزّاب التي تقع عند أقدام تلك الجبال المنيعّة وبعد أن « بلغهم أمره لجئوا على حصنهم و هرب بعضهم إلى الجبال و الوعر ، و بعد حصار ليليّ أمر عقبة بالقتال و انهزم القوم و قتل

²⁹ ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 193 .

³⁰ المصدر نفسه ، ج 6 ، ص 193 .

³¹ الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، ص 10 .

³² المصدر نفسه ، ص 10 .

أكثر فرسان الرّوم و ذهب عزّهم من الرّأب و ذلّوا »³³ ،
ليواصل بعدها عقبة مسيره إلى تيهرت التي يبدوا أنّها
كانت مركزا آخر قويا للوجود البيزنطي في المنطقة إذ
تصف المصادر أنّهم راسلوا البربر بعد أن بلغهم خبره
فأعانوهم ونصروهم و التحم القتال بعد أن خطب عقبة
في مقاتليه و انتصر و فرّق جموع الرّوم .

إن اشتداد المقاومة يعود في حقيقة الأمر إلى أوّل
تحالف للبربر مع الرّوم فما هو منشأ هذا التّحالف هل
يعود إلى مشترك عقائدي بين الطّرفين تحرّكت فيه جذوة
الدّين و نصرّة المعتقد الواحد؟ ، أم أنّه تحالف ضرفي
أملته المصلحة المشتركة في محاربة عدوّ واحد؟ و ما
مصلحة البربر في الدّخول إلى تحالف ضدّ الفتح
الإسلامي و هم الذين أسلموا منذ أكثر من عشر سنوات
مع أبي المهاجر أو قبله في حملة عقبة بن نافع
الأولى؟ .

إنّ بروز التّحالف بين البربر و الرّوم لم يكن
ليظهر في هذه المرحلة الخطيرة لولا السّياسة المبنية
على الحزم و القوّة التي انتهجها الفاتح عقبة بن نافع
فالمصادر تشير إلى أنّ عقبة بن نافع كان حانقا على
سابقه أبي المهاجر دينار ، و لربّما كان ناقما على
سياسة اللّين و المداراة و التّحالف التي انتهجها مع
البربر لرؤية يراها في طباعهم و أخلاقهم و سلوكياتهم ،
فالمصادر تشير إلى أنّ عقبة أوثق الرّجلين أبي
المهاجر و كسيلة زعيم أوربة في الحديد و بالغ في
إهانتها ، و كان يحدث كلّ ذلك في معسكر الجيش
الذي لا نستبعد أنّه كان يضمّ من البربر جنودا يرون ما
يحدث للقائدين اللّذين كانا بالأمس يحكمان بلادا تمتدّ
من مصر شرقا إلى المحيط الأطلسيّ غربا فهل وقعت
اتصالات ما بين كسيلة و قومه أدّت إلى بداية التّحالف
البربري البيزنطي ؟ .

لا نستبعد حدوث اتّصالات ما بين كسيلة و قومه
بالقرب من تلمسان لكن المؤكّد أنّ البربر كانوا يرون
مايحدث لقائدهم كسيلة من إهانات متتابعة سواء أكانوا
يعرفون سببها أم لا ، و كانوا يتحيّنون الفرصة لينكبوا
بجيش الفتح فكان أن شاركوا أوّل الأمر في تحالف
بيزنطي بربري في تيهرت استطاع عقبة أن يفرقه و
يقضي عليه .

و إذا كان دور الرّوم في مقاومة جيش الفتح قد
أحرز تقدّما محتشما في ضمّ البربر لمقاومة الفتح على
إثر نزول عقبة إلى المغرب الأقصى فإننا نلاحظ أخيرا
نجاح هذا التّحالف عبر مبادرة لا ندري يقينا هل كانت
بيزنطية و وجدت لها هوى في نفوس البربر اللّذين
وجدوا فيها انتقاما لقائدهم كسيلة أم كانت بتحريض من
كسيلة الذي استتجد بقومه و استغاث بهم فلقنوا إلى
البيزنطيين و اكتملت أسباب التّوافق و التّعاون بين
الطّرفين ؟ .

لا ينفرد ابن عبد الحكم في ذكر أنّ كسيلة لم يكن
أصلا في جيش عقبة بن نافع في طريق العودة على
الأقل فبعد « أن خرج ابن الكاهنة البربري على إثر
عقبة من منهل ابن الكاهنة فلم يزل كذلك حتّى انتهى
عقبة على السّوس و لا يشعر بما صنع البربريو
انصرف راجعا و الميّه قد عوّرت و تعاونت عليه البربر
فلم يزل يقاتل ... »³⁴ ، فقد يكون الرّجل قد هرب من
الأسر « و لمّا نظر إليه الفرنجة طمعوا فيه و أرسلوا
كسيلة بن لمزم و دلّوه على الفرصة فانتهزها »³⁵ و لمّا
« قرب من تهودة وجد كسيلة البرانسي قد جمع أكثر من
خمسين ألف مقاتل من البرابر »³⁶ ، و في معركة
تاريخيّة فاصلة انهزم عقبة عند تهودة الحصن الروماني

³⁴ ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص 267 - 268 .

³⁵ ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 193 .

³⁶ ليفي بروفنسال ، المصدر السابق ، ص 220 .

³³ المصدر نفسه ، ص 11 .

القديم³⁷ وتمكّن هذا الحلف الرّمي البرنسي من أن يتسبّب في تأخير عمليّة الفتح النّهائي لبلاد المغرب لمّا وقع الجلاء النّام لمعسكر جيش الفتح بالقيروان سنة 64هـ / 683م .

إن هذه الأحداث المدوّنة بوقائعها الحديثة تشير بوضوح إلى أن المقاومة عموماً لم تكن سوى بيزنطيّة رومية تتحرّك عبر جيوبها في المدن و القلاع المنتشرة داخل بلاد المغرب هذا إذا استثنينا المعركة الأخيرة الفاصلة التي استغلّت فيها سوء العلاقة بين عقبة بن نافع و كسيلة بن لمزم الأوربي ، فما مدى حضور الديانة النّصرانيّة في مقاومة البربر للفتح الإسلامي ؟ و ما مدى انخراط البربر في رفض تعاليم هذا الدّين ؟ .

إن تتبّع سياق الأحداث لا يدلّ في حقيقة الأمر على رابط ديني أو روعي وثيق يجمع البربر بالبيزنطيين ، فما من شكّ في أن تعامل عقبة بن نافع بازدياء و قسوة و مهانة و تهميش له و لقومه من الانخراط في أدوار سياسيّة كسابق عهد لهم قبل الإسلام هو الذي ساهم في توجيه الأحداث لأن تنتهي بتلك الواقعة الخطيرة على مستقبل التثبيت النّهائي للإسلام في تلك الرّبوع فنذكر المصادر أنّ عقبة « أمر كسيلة أن يسلك مع السّلاخين فقال له قم فقام كسيلة مغضباً... »³⁸ أمّا أبو المهاجر فقد نصّح حينها عقبة قائلاً له « أصلح الله الأمير ما هذا الذي صنعت....تجيء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزّه قريب عهد بالكفر فتفسد قلبه ، توثّق من الرّجل فإنّي أخاف فتكه »³⁹.

إنّ سياسة عقبة بن نافع كانت قد تأسّست على حزم و شدّة مبالغ فيها افتقر فيها هذا القائد لروح

المشورة التي تزيد من سداد الرّأي و صلاح الاختيار ، خاصة لما همّش سابقه أبي المهاجر دينار الذي كان قد خبر الأرض و الإنسان ، و رغم محدوديّة عملياته جغرافياً إذا ما قورنت بأعمال عقبة بن نافع فإنّ أعماله في الفتح صاحبها كياسة و مرونة و تروّي في كسب قلوب البربر عبر الدّعوة و التقريب و التّحالف و عبر استغلال ما كانوا يتمتّعون به من علاقات سابقة مع البيزنطيين ، أمّا عقبة فقد خالف سابقه و كدّر صفو قلوب أوربة و حلفائها و أثار عصبية الانتماء العرقي بمعاملته القاسية لزعيمهم كسيلة و لم يهتمّ بطبائع القوم وقرب عهدهم بالإسلام كل هذا سهّل على البيزنطيين استغلال هذا الوضع لصالحهم و تمكّنوا من إثارة كسيلة و قومه عند أول سانحة .

الخاتمة

- تعميمات المصادر الإسلامية لا تدقق في التوصيف الحقيقي لديانات البربر لأنّها لم تكن معاصرة لعمليّة الفتح ، بل كانت معلوماتها تنتقل عن طريق الرواة الذين لم ينقلوا لنا تفاصيل العبادات و مظاهرها فغابت عنا تفاصيل مهمّة خادمة للموضوع .

- لو كانت القبائل البدوية المستقرّة قد اعتنقت المسيحية فما سرّ الاختفاء الكلّي لهذه الديانة نهاية القرن الأوّل الهجري عند قوم ارتدّوا و رفضوا الإسلام عديد المرّات ؟ ، إن الديانة النّصرانيّة صارت الوجود في الشّرق العربي و بقيت محمية في إطار تعاليم الإسلام إلى وقتنا الحالي و بقيت معالمها الأثرية تقاوم الزّمن طيلة القرون العشرين الميلادية .

- كانت مقاومة البربر للإسلام تتطوّر من ترسخ قيم الرّفص للسياسات التي رافقت الفتوح لا للقيم التي تحملها أدبيات الدّين الجديد ، و هو الذي يظهر من سياق الأحداث فالفتاح أبي المهاجر دينار اقترب في مقاربته في أعمال الفتح من روح الإسلام التي لا تعتمد الإقصاء و القوّة و التّهميش ، و على العكس منه لم

³⁷ بن عبد الحكم ، المصدر السّابق ، ص 267 .

³⁸ المالكي ، رياض النّفوس في طبقات علماء القيروان و إفريقية و زهادهم و نسّاكهم و سيرهم و أخبارهم و فضائلهم ، تح بشير البكوش ، دار الغرب الاسلامي ، لبنان ، 1994 ، ج 1 ، ص 42 .

³⁹ المالكي ، المصدر السابق ج 1 ، ص 42 .

- ألفرد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، تر : عبد الرحمن بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1987م .
- حارش محمد الهادي ، أصول عبادة آمون في المغرب القديم ، مجلة الدراسات التاريخية ، معهد التاريخ ، العدد 4 ، السنة 3 ، 1988 .
- محمد الصغير غانم ، الملاحم الباكورة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا ، دار الهدى ، عين مليلة ، 2005 .
- ب - المصادر
- بن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ، فتوح مصر و المغرب ، تح : عبد المنعم عامر ، القاهرة ، دت . المصدر نفسه ، ص 268 .
- مجهول ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، تح : ليفي بروفنسال مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، العدد 1-2 ، مدريد ، 1954 .
- البكري أبي عبيد الله ت 487 هـ ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، مصر ، دت .
- بن خلدون ، تاريخ بن خلدون ، تح : خليل شحادة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 2001 ج 6 .
- الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقيا و المغرب ، تح : عبد الله العلي الزيدان ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1990 - مجهول ، مفاخر البربر ، تح : عبد القادر بوباية ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 2005 .
- مراكشي مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار : تح : سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العراق ، 1985 .
- خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط العصفري ، تح : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 1993 .
- المالكي ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و إفريقية و زهادهم و نسائهم و سيرهم و أخبارهم و فضائلهم ، تح بشير البكوش ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، 1994 .
- المراجع و الأبحاث باللغة الفرنسية
- Camps , l'inscriptions de bēga et le problème des dii mauri , rev . Afr , vol 98 .
- E.F.Gautier, le passé de l'Afrique du nord , (les siècles obscurs), petite bibliothèque payant, Paris ,1952. .
- Chr. Courtois, de Rome a L'islam ,rev afr, T86 .
- Mercier .E , Histoire de l'Afrique septentrionale (Berberie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française, Edition Ernest Leroux, Paris 1888.
- Ernest dammann , les religions de lafrigue, payot ,paris,1964 .

يفلح عقبة بن نافع في قراءة قوة ارتباط البربر بعاطفة الرّفص للأجنبي الذي يقصي خياراتهم في الحكم و الريادة وهو الموقف الذي حوّرت الكتابات الاستشراقية و حاولت تسويقه على أساس أنّه رفض للإسلام ككل .

- لم يتدين البربر بالديانة النصرانية لأنها كانت لصيقة في وجدانهم بالاحتلال الذي كان يستنزف مقدرات وطنهم ، و ينفي وطنيتهم و يقصّهم من الانتماء لحضارته كذلك .

- ساهمت جغرافيا السطح في عزلة شعب هذا الإقليم بابتعاده عن الديانات ذات الأصل السماوي لارتباطها بمؤسسات عبادة منظمة في الأديرة و الكنائس ، والتي كانت أقوى من ما تسماوا إليه روحه فتدحرجت مستويات الرقي الروحي لديه إلى العبادات الوثنية التي ترتبط بمظاهر الطبيعة و ماديّات الكون و المخلوقات التي يراها و يعيش معها .

- تحاول الكتابات الغربية جاهدة التقدم في البحث عن دلالات و لو صورية استنتاجية لتكريس فكرة نجاح الرومنة و تمكّنها من تصدير قيمها الحضارية لشعب الشمال الإفريقي في محاولة يائسة لصبغ مدنية و حضارة هذا الإقليم في إسقاط تاريخي لا يستند على دلائل أثرية أو مستندات وثيقية فعزّت هذه المحاولات الأهداف غير الأكاديمية التي ترومها تلك الكتابات .

ثبت المصادر و المراجع

أ - المراجع :

- جورج مارسيه ، بلاد المغرب و علاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى ، تح : محمود عبد الصمد هيك ، الإسكندرية ، مصر ، 1991 .
- فيلالي عبد العزيز ، عبد العزيز فيلالي ، دراسات في تاريخ الجزائر و الغرب الإسلامي ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، 2012 .
- حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ، دت ، ص .
- خديجة منصوري ، الصراع الدوناتي الكاثوليكي ، مجلة جامعة الأمير عبد القادر ، العدد 12 ، دار البعث ، قسنطينة ، 2002 - يوسف عيش ، الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب دراسة للأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية ، دار بهاء الدين ، قسنطينة ، 2009